هذا الاسبوع
١٣/٦/١٩٨٢

٤ خيارات عربيّة أمام الرئيس المقبل

امام الرئيس المقبل، الحالي أو غيره سواء، خيارات اربعة في تحديد تعامل لبنان مع العرب. ولكل من هذه الخيارات محامون ودعاة في الساحة اللبنانية، وخارجها، اختاروا احدى هذه السبل من دون غيرها، بينما رأت السلطة الراهنة نفسها مرغمة على التوفيق ما بين هذه الخيارات واصحابها والواقفين وراءها.

الخيار الاول يقضي بأن ينظر الى بعد لبنان العربي، كأمر يفرضه الواقع، ويتعامل دعاة هذا الخيار معه، كتعاملهم مع عناصر الواقع اللبناني الاقليمية الاخرى، من دون اي منحى ايديولوجي، واي شعور بالانتماء. فالاطار العربي، في نظرهم، عنصر جغرافي، واستراتيجي فحسب. ومن هنا بالتحديد قولهم، أن على لبنان ان يوازن بين هذا الجوار الذي لم يختره طوعاً، وبين علاقات أخرى، اقليمية ودولية، تجعل تأثير هذا الجوار نسبيا، اي واحدا من مؤثرات شتى. وكانت هذه العلاقات، متجهة، حتى امد قريب نحو الغرب: فرنسا بالامس، الولايات المتحدة أحياناً، ودول أخرى ايضاً. وقد لعب هذا التوازن دوره، في رأيهم سنة ١٩٤٣، حين تم التخلي المتزامن عن علاقات وثقى، عربية لطرف وغربية لطرف آخر، وسنة ١٩٥٨، حين استطاع لبنان ان يوازن بين نمو النفوذ الناصري وبين تطبيق عملي لمبدأ ايزنهاور أي بانزال المارينز على شواطئنا.

والمعطى الجديد في هذا المنحى السياسي، ميله المتعاظم، منذ سنوات قليلة الى اعتبار اسرائيل بديلا من غرب متقاعس ومخيب للامال. قد لا تكون باريس او واشنطن راضيتين عن هذا الاستبدال الاقليمي بالدولي، ولكن تل ابيب تبدو، في الاجمال، متحمسة له. فهذا الاحلال الامني العملي المؤثر، يدخل ولا شك في صلب المشروع الصهيوني كما تعبر عنه بالتحديد التجمعات الاسرائيلية التي وصلت الى السلطات بعد انتخابات ١٩٧٧ والتي يقودها، حتى اليوم، مناحيم بيغن.

الخيار الثاني نقيض السابق. فمنطلقاته، في التعامل مع العرب، ايديولوجية، انتمائية. اذ يؤكد دعاته ان لبنان جزء لا يتجزأ من أمة عربية واحدة، وان عليه، بالتالي، مقاسمة العرب افراحهم والاتراح، انتصاراتهم والهزائم. ومن هنا يقصي عليه الواجب بتفهم حاجات ومصاعب اشقائه وتغليب المصلحة القومية العليا، باستمرار، على اي مصلحة قطرية ضيقة. ومن نتائج هذا المنحى مثلا، انشاء جيش مدرب ومسلح يشارك في المعركة، التي لم تجد لليوم مدى مع عدو اسرائيلي شرس، لا يهدد مستقبل فلسطين فحسب، وانما أمن العرب جميعاً، خصوصاً اولئك الذين لهم مع هذا العدو حدود مباشرة. ومن نتائجه المنطقية ايضاً، دعم المقاومة الفلسطينية المسلحة، ومساعدة اي دولة عربية ترى أمنها مرتبطاً بانتهاج لبنان لهذا المنحى.

الخيار الثالث، يقع في موضع وسطي بين هذين الخيارين الاقصيين. فهو يؤكد ان لبنان، في المبدأ والاساس، بلد عربي، مثله مثل تونس، او اليمن او الكويت، وان عليه، في المطلق، حقوق اي من هذه البلدان وواجباتها. لكن دعاة هذا الخيار يضيفون، بواقعية، ان أياً من البلدان العربية لا يتميز اليوم عن غيره، بدفاعه المستميت عن المصلحة العربية العليا. وهم يرون ايضاً ان الدول العربية غالباً ما تتنافس، على عكس ذلك، في تغليب مصالحها الآنية والذاتية على اي اعتبار آخر الى حد ان جهودها تضيع في صراعات يواجه العربي العربي، ويتقاتل فيها ويتناحر ابناء الامة الواحدة. ويلاحظ هؤلاء أن اي بلد عربي شعر ذاته يوماً في وضع "أقلّي" ضعيف ضمن الاطار العربي، فهو لا يستنكف ان يمد اليد لحليف غير عربي، اقليمي أو دولي، بغية تحسين وضعه المهدد ضمن المجموعة العربية.

من هذا التناقض الواضح والمؤذي بين المبادىء والواقع، بين النوايا المعلنة والافعال، يستنتج هؤلاء، ان ليس من واجب لبنان، وهو من أصغر دول العرب حجماً، ومن أقلها قدرة، واكثرها تعرضاً للعطب داخلياً وعلى الحدود، أن يكون ملكياً اكثر من الملك، وان يحمل هموم العرب، ووزر هذه الهموم الثقيل، في عصر التقهقر والردة، بمفرده بينما الآخرون منغمسون في ثرواتهم وتناقضاتهم. واذ يأخذ دعاة الخيار الثالث هذا، على محامي الخيار الاول نفيهم غير المبرر، لانتماء لبنان العضوي الى العائلة العربية، فهم يتهمون دعاة الخيار الثاني بتحميل لبنان فوق طاقته، وبفرض مسلك مثالي عليه، دونما اي اعتبار لمسلك العرب الآخرين، او جلهم. لكن الاستنتاج الذي يخرجون به انتظاري ساكن. فهم يريدون من لبنان ان يحدد واقعياً، خط الحد الادنى المتفق عليه من التضامن العربي، وان يلتزمه، ريثما يرتفع هذا الحد، او ينتفي تماماً بارادة الاطراف العربية القادرة، ولبنان ليس منها على الاطلاق.

الخيار الرابع ينطلق من اعتبار مثنّى. اول عناصره استحالة عزل لبنان عن محيطه العربي امنياً وسياسياً وحضارياً. وثانيهما، ان التناقض بين نمو الشعور الوطني اللبناني، وبين رغبة قطاع من اللبنانيين توسيع رقعة تعامل لبنان مع العرب، او سبغ بعد انتمائي حميم على هذا التعامل انما هو تناقض مفتعل، ونتاج، يمكن تعديه، للانقسامات التقليدية في المجتمع اللبناني. ويضيف دعاة هذا الخيار أن احد الشروط الاساسية للتحرك اللبناني في دنيا العرب، هو بالتحديد نمو الروح الوطنية اللبنانية الواحدة، التي تتعدى بطبيعتها مجرد التعايش الهش، السلمي حيناً والمتوتر حيناً آخر. ولكي تنمو هذه الروح بصورة صحية، يجب الا تدعيها فئة من دون اخرى، والا تحمل في تضاعيفها اي محتوى عدائي نحو العرب ومطامحهم. وهم يضيفون بالتالي، ان المسألة الاساسية هي في تحويل لبنان التدريجي من ساحة وميدان يلتقي ويتصادم فيه كل اللاعبين، اقليميين ودوليين، الى فاعل تحرك، لا يستنكف ان يقول رأيه، ويبوح بافضلياته ويحدد هوية اصدقائه والاعداء. وهم يرون ايضاً ان قوة لبنان ليست، على الاطلاق، في ضعفه، ملاحظين ان الدول العربية الاخرى لا تخلو بدورها من الخلل، ان في وحدتها الداخلية او في قدراتها الذاتية او في مدى تعرضها للعطب. ويرى هؤلاء، أخيراً، أن توسيع تحرك لبنان العربي وتعميقه من شأنه المساعدة في رتق الصرع الداخلي. اذ ان فيه، في آن واحد معاً، تأكيداً للانتماء العربي وللارادة الذاتية اللبنانية.

لقد تأرجح لبنان، منذ استقلاله، بل منذ نشأته، بين هذه الخيارات الاربعة. وتواجدها اليوم معاً على الساحة، وتنافسها الحاد، يدلان على أن تعددها شكل من اشكال حربنا، ذات الاعوام الثمانية. أليس من الممكن، ان يستعيد رئيسنا المقبل، بين مشاغله الجمة، وبعين نقدية فاحصة هذه الخيارات جميعا؟ وهل من التطفل دعوته للتوقف، بعض الشيء أمام رابعها؟

الدكتور غسان سلامه
باحث في الشؤون الفكرية العربية واستاذ في الجامعة اليسوعية